

كتاب السبعين لفظة المفردة

عبدالرحمن السليمان

١. مقدمة:

عندما أدخل أبو الأسود الدؤلي نظامي الإعجام والإشكال وضبط بذلك رسم المصحف الشريف ونطقه، أسس بذلك لتلك الحركة العلمية الكبيرة التي عرفت علوم اللغة عموماً والدراسات القرآنية خصوصاً في العقود اللاحقة. وكنت أبننت في أكثر من موضع أن اهتمام المسلمين البالغ بالقرآن الكريم أثار اهتمام السريان واليهود الذين أخذوا نظامي الإعجام والإشكال عن العرب ليضبطوا بهما كتابتيهم السريانية والعبرية، وكذلك مناهجهم في الدراسات اللغوية ليطبقوها على لغتيهم السريانية والعبرية.

واجه اليهود صعوبة كبيرة في بداية دراساتهم اللغوية لأن النص العبري للتوراة كان يعاني في تلك الفترة من معضلتين كبيرتين هما: فقدان الإسناد في الرواية، لأن العبرية التوراتية أصبحت لغة ميتة ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد، ولأن النص العبري للتوراة روي منذ ذلك الوقت حتى وقت أبي الأسود الدؤلي بدون إعجام ولا إشكال، الشيء الذي يعني أن أحداً لا يعرف على وجه الضبط كيف كانت آياته تنطق، من جهة، والإهمال من جهة أخرى، لأن التوراة أصبحت في القرن الثاني الهجري شبه منسية عند جمهور اليهود بسبب طغيان التلمود البابلي عليها. وأدى هذا الوضع إلى نشوء فرقة لدى اليهود أطلق عليها فيما بعد اسم "القرائين" نسبة إلى كثرة "قراءة المقرأ" أو كتاب العهد القديم. أسسس هذه الفرقة في بغداد عنان بن داود الذي ظهر كزعيم للفرقة أيام أبي جعفر المنصور المتوفي سنة ١٥٨ هجرية (٧٧٥ ميلادية).^١ وتركز نقد عنان لأخبار اليهودية في مسائل كثيرة أهمها على الإطلاق رفضه لكتاب التلمود (التلموديين البابلي والمقدسي) واعتباره إياه بدعة ابتدعتها الأخبار ونسبها إلى موسى، ومطالبته بالعودة غير المشروطة إلى كتاب العهد القديم مصدر الديانة اليهودية الوحيد حسب قوله.^٢

أدت حركة القرائين اليهود التي أسسها عنان^٣ هذا إلى الاهتمام بأسفار العهد القديم، فقام المسوريون، وهم من القرائين، بإدخال نظامي الإعجام والإشكال في عبرية العهد القديم معتمدين في ضبط نطقه على

^١ انظر كتاب الأنوار والمراقب لأبي يعقوب إسحاق القرقيساني. المجلد ١، الصفحة ١٣. نيويورك، ١٩٣٩. والقرقيساني واحد من أهم متكلمي الفرقة القرائية.

^٢ كل المعلومات الواردة في هذا المقال بخصوص القرائين اليهود مأخوذة من الكتابين التاليين: أبو يعقوب إسحاق القرقيساني، الأنوار والمراقب. نيويورك، 1939 وإبراهيم بن دود، 750 דקבלה (سيفر ها قبله)، لندن، ١٩٦٩.

^٣ شكى اليهود إلى الخليفة الذي أودعه السجن بتهمة الهرطقة. ويقول القرقيساني (الأنوار والمراقب، المجلد ١، الصفحة ١٣) أنه التقى في السجن بالإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، الذي أشار عليه بقاء الخليفة أبي جعفر المنصور وشرح معتقده له، وهو ما تم بالفعل حسب رواية القرقيساني فعفا المنصور عنه وأطلق سراحه. وتعرف فرقة في المصادر الإسلامية باسم "العنانية".

الآرامية اليهودية، وهي الآرامية التي دون كثير من الأدب اليهودي بها، والتي كان اليهود يتكلمون بها قبل استعراهم بداية العصر العباسي. انتشرت الفرقة القرائية انتشاراً واسعاً بين جمهور اليهود وكادت تغطي على التلموديين حتى قام الحاخام المتكلم سعيد بن يوسف الفيومي (750 בן יוסף אפלומי) المتوفى في بغداد سنة 942، وبدأ بمجادلة القرائيين معتمداً في ذلك على مناهجهم العقلية التي أخذوها عن متكلمي المسلمين وخصوصاً المعتزلة منهم. فترجم سعيد بن يوسف الفيومي العهد القديم إلى العربية ترجمة فسر فيها التشبيه الوارد في التوراة تفسيراً مجازياً، وعالج تلك المشاكل العويصة في النص التوراتي معالجة عقلانية بعض الشيء، وفسر غريب التوراة من العربية، فكانت دراساته حلاً وسطاً بين جمهور اليهود الذين يثبتون التشبيه بصور حسية، والقرائين الذين ينفون التشبيه نفياً مثل نفي المعتزلة له.

٢. (كتاب السبعين لفظة المفردة):

إن (كتاب السبعين لفظة المفردة) لسعيد بن يوسف الفيومي كتاب لغوي جدلي في آن واحد، لأنه حاول فيه تفسير سبعين لفظة غريبة من التوراة من كتاب "المشناة". و"المشناة" (= المثنى) هي "التوراة الشفهية" التي يعتقد جمهور اليهود بشأنها أن الله أوحى بها إلى موسى، ذلك لأنهم يقولون إن الله أنزل عليه توراتين: توراة كتابية وثانية شفوية. فدوّن اليهود التوراة الكتابية، وتناقلوا الشفهية تواتراً حتى دونوها في القرن الثاني للميلاد خشية ضياعها. وتشكل "المشناة"، وهي بالعبرية، نواة التلمود. وهي التوراة التي يرفضها القراؤون هي وشروحها (= التلمود) معها، معتبرين إياها من فبركة الأحرار. فأراد سعيد الفيومي، وهو حبر تلمودي، شرح سبعين كلمة من العهد القديم من المشناة للتدليل على أهميتها، مجادلاً بذلك القرائين الذين يرفضونها من أساسها. والمقصود "باللفظة المفردة" الكلمة التي وردت مرة واحدة في نص العهد القديم والذي لا يعرف معناها على وجه الضبط، وتسمى في أدبيات الكتاب المقدس hapax legomenon وفي الأدبيات اليهودية "بالكلمة اليتيمة".^٤

يبدأ الكتاب بالمقدمة التالية:

"كتاب السبعين لفظة [المفردة] من مفردات القرآن^٥ وشرحه من تخصيص المشناة بدلائلها مما استخرج ذلك מרבינו סעדיהו גאון בן מרבי רבנא יוסف:

^٤ من اليونانية ومعناها: "اللفظة الواردة مرة واحدة"، أي "اللفظة المفردة". أما في العبرية فيعبر عنها ב איין לה אב אא "الكلمة التي ليس لها أب أو أم" أو "الكلمة اليتيمة". انظر كتاب Leo Prijs, Die Grammatikalische Terminologie des Abraham Ibn Ezra. Basel, 1950. صفحة ٢٤.

^٥ أي كتاب التوراة وكتب العهد القديم. فقد بلغ تأثير الحضارة الإسلامية في اليهود أن استعاروا الألفاظ الإسلامية الفحة للدلالة على مسميات بعينها من الشريعة اليهودية كالفقه "للتلمود" والسنة "للمشناة" الخ. ويسمى سعيد العهد القديم في كتابه

قال جامعه بما أن الاستشهاد فيما بين من يدلّ ويستدلّ إنما هو بما ظهر على ما خفي كذلك البرهان أيضاً إنما يكون بينهما مما يقران على ما يختلفان فيه وكما أنه قد يدل المقيس للدليل بخفي على خفي وخفي على خفي [كذا] بعد أن ينتهي آخر قوله إلى ظاهر كذلك يجوز أن يدلّ بما هما مختلفان فيه بعد أن تنتهي الحجة إلى ما هما متفقين [كذا] عليه. وإني رأيت قوماً من العبرانيين^٦ يجحدون ما نقل عن الأنبياء من الشرائع التي هي غير مكتوبة^٧ وكذلك يجحدون بعضهم [كذا] ما سمعوا من اللغة من كلام الأمة ولم يجدوه في الكتاب".

مثال من (كتاب السبعين لفظة المفردة):

"وقول حبقوق في ملك [بابل ونظرائه] כי אבן מקיר תזעק וכפּיס מעץ יעננה. تفسير וכפּיס الآجر كما وجدنا في المشناة حين وصفوا ما بينيه الشريكان [المشركون؟] מקום שנהגו לבנות גויל גזית כפוסים [أي] آجر. ومعنى ذلك يقول النبي ظن في نفسه أنه يتخلص من عقاب الله".

فكلمة כפּיס (سفر حبقوق، ١١:٢) وردت مرة واحدة فقط في كتاب العهد القديم، ومعناها مجهول فيه حتى اليوم، ففسرها سعيد من المشناة حيث تعني فيها "الآجر". وترجمها بالآجر في ترجمته العربية. وترجمت هذه اللفظة المفردة في الترجمة العربية الكاثوليكية بـ "الجائر": فَالْحَجَرُ يَصْرُخُ من الحائِط والجائرُ يُجِيبُ من الخشب". أما في الترجمة العربية البروتستانتية فنقرأ: "لأن الحَجَرَ يَصْرُخُ من الحائِط فيُجِيبُهُ الجائرُ من الخشب". ولا شك في أنه يجوز لنا اعتبار هذه "الجائر" العربية من "الألفاظ المفردة" لأن أحداً من العرب لن يفهم معناها في هذا السياق!

المصدر:

سعاديا بن يوسف الفيومي. كتاب السبعين لفظة المفردة. الكتاب مطبوع باللغة العربية بأحرف عبرية ضمن مجموعة من الكتب التي نشرت في ذكرى رحيل المستشرق اليهودي إسحاق يهودا جولدزيهر، ظهرت في القدس بالعنوان التالي: ספר זכרון לכבוד יצחק יהודה גולדציהר. ירושלים תשי"ח.

هذا بالقرآن وبالكتاب أيضاً. وترجم اليهود فيما بعد اسم "القرآن" إلى العبرية هكذا מקרא "مِقْرَأ" وهو اسم الآلة من الفعل قرأ/الذي يعني "التلاوة" في العبرية.

^٦ يقصد فرقة القرائيين.

^٧ يقصد كتاب المشناة